قصة قصيرة

مملكة الربع الخالي

حمد صالح

ليل القرىٰ أسود مثل الكحل ، ووجوه النساء المتعبات أقمار كئيبة، ومن تلك الصخور الجبليّة قُدّت وجوه الرجال . و ح ص ، ذلك العائد من اعماق تاريخه الشاحب ، المثقل بهموم واتعاب الارض والسماء والافلاك البعيدة ، يتطامن على اوجاعه وعذابات اعوامه العصيبة ويحسب على رؤوس الاصابع ما تبقىٰ من زمن الهتك أو زمن الإنحسار . ليس من السهولة ان يؤمن بمنطق الخسارة ، فالشمس في عينيه الحسيرتين ما زالت ترتدي وجه صبيّة خجولة . صبية شفافة كحلم مضيء يرقد مذعوراً بين بحر من رمال الربع الخالي وانياب وحش مسعور تمخض عنه سراب كاذب . كان ح ص يتساءل بدهشة طفل اختلطت في ذهنه القناعات وتشابكت في وعيه الأمور : هل البحر يعكس لون السماء، ام السماء هي التي تعكس لون البحر ؟ وحين تستعصي الاجابة يتراجع مقهوراً . يلوذ بصمت مكروب . ينتابه احساس مبهم ، فالسماء والبحر على حدٍ سواء يصبغهما الليل بلونه الكئيب ، الحالك السواد ، أما حين تطلّ الشمس بنورها الأزلي المشع لتكشف عبث كائنات الليل المخيفة وتفضح تشويه الآخرين فإنها بذلك تطرح ما هو اصعب من الأسئلة. وكأن طعم الحياة ممكن تذوقه في عنف الكوابيس المتصارعة في الداخل الجاف . فجوة ضوء سحري باهر ، تولد من غياهب بعيدة ، ولكنها اختفت الآن . فجأة انفلتت من بين الأصابع المتراخية كقطرة ماء تسربت في ذرات الربع الخالي ، مو بي ديك . . ايها الوحش المروع ، الظالم ، هل انت السبب ام النتيجة ؟

ـ انه يحتضر . .

الشمس أمل موعود يطل في عيون الصبية الطيبين . الشمس بعيدة . . جد بعيدة ، وثمة طير خفيف تتفجر الحياة في جنباته ، كان يحلق في فضاءات رحبة ولكنه الآن يهوي من عليائه مهيض الجناح . ينحدر سريعاً نحو الأرض .

ـ جسده ساخن كأنه مشويّ في فرن .

النجوم في السماء مثل عيون اسماك تسبح في بحيرة صافية . ترشح وجعاً . يخبو وميضها المتألق . تحتضر . يا لهذه العتمة الرهيبة . وحده يتعثر في هذا المنفىٰ القابض . يترنح متعباً خائر القوىٰ . تملّ خطوه الدروب ولكنه يظل مصرّا علىٰ حمل صليبه في داخله . يحمل على طرف لسانه اكلمة ملتاعة ويرتحل وراء ضياء نجم بعيد . تدمي صخور افريقيا المرجانية قدميه الحافيتين ، وتبتلعه غابات الهند الصينية الكثيفة وفي داخله تتجمّد جبال الثلج في شمال آسيا ، والغرب كله يحجبه الضباب . خارطة العالم تنام في ذاكرته باردة قميئة . يحلم بصدر امرأة دافئة ، شقراء الشعر ، سوداء العينين ، يتفجر الحب ينابيع وانهاراً من نهديها المكتنزين ، يفيق من حلمه الحالك ، المتجهم ، ليحملق مصعوقاً في سطح لا أول له ولا آخر من الرمل والجفاف . يلهث متعباً في صحراء قاحلة . امتداد لا نهائي من الضياع والتيه والتوغل في كثبان وفيرة من الرمل والسراب والاحلام العريضة . كان عارياً ومهزوماً ينوء تحت آلام صليبه الثقيل . والربع الخالي ينفرش على مدّ البصر ، وليس في الآفاق المترامية أي أثرٍ لجبل الجلجلة . كثبان هائلة وجافة من رمال الصحراء الساخنة تتكدس في عينيه الحسيرتين . يحلم بعالم آخر . . عالم بلا رمال . الربع الخالي الآن مفروش بالزهور الربيعية الزاهية الالوان . تكتنفه اشجار الفواكه المثمرة من كل جانب . حدائق غنّاء نديّة . وفي الفضاءات المضاءة تحلق طيور جميلة . طيور ملونة تحفّ الريح الرطبة باجنحتها الخفاقة . جنّة الله في الأرض تنام في الذاكرة مجرد حلم باهت يبوح به سراب الفصول . اي حوت ـ إذن ـ ابتلعها يا صحراءنا القاسية ؟ يصرخ ملتاعاً وان لم يسمعه أحد . من سمّر هذا الصليب الكافر على جسد العالم ؟ وحين تغرق كل الاجوبة في رمال الربع الخالي يحتضن احلامه الصغيرة ويبتسم للشمس باشفاق ومرارة ، ويتخيلها ـ في الحلم طبعاً ـ باهرة الجمال ، دافئة ، ترتدي وجه صبيّة قروية خجول .

ـ هل مات ؟

ـ لا . . ما زال على قيد الحياة ولكنه يحتضر .

يضع المنظار على سطح المنزل ويمضي بتأنٍ وشوق يرقب قدومها . كتلة حمراء متوهجة تندفع متسلّقة انحناءة السماء الفاقعة . في المنظار المقرّب المصنوع خصيصاً للنظر في عمق الاضواء الساطعة يمكن التأكد من هوية الفوهة المستديرة ، التي ظلت ابد الدهر عنيدة ومغرية ـ مستعصية على الفهم وبعيدة عن متناول اليد . كلما غازلها العلماء والشعراء والفلكيون نفرت وازدادت غموضاً وابهاماً . في البدء يرى في العدسة تفشي نورها الساطع على أفق يبتسم . يركز المنظار على النقطة المحدّدة

لانبثاقها . يراها تولد مشرقة . كوجه عروس بدوية تطلّ من خدرها الجميل . تغسل شرقي آسيا بنورها البهي . تتوغل في دقائق التراب وتنفذ عبر القشرة الارضية الى الداخل . تخترق تشابك الغابات المدغلة وتصافح في قمم جبال كمشتكا المتصلبة ، منحرفة بزاوية عينها الملتهبة اسفل جزر الفلبين وجزائر ملوكاس . تمرّ بذهنه ادغال وحيوانات وجبال وبحار وجيوش غازية واخرىٰ مندحرة وامبراطوريات بائدة وديانات واساطير وكائنات مختلفة الاشكال والاحجام لا نهاية لها . يتذكر بألم كيف مات طير صغير ، ناعم ، لا يملأ قبضة اليد . خرَّ صريعاً لأن قناصاً حاذقاً اصطاده على غفلة وهو يحوم منتشياً في فضاء رحب . منذ أمد بعيد وهو يرىٰ الطائر الجريح يهوي من عليائه مهدّل الجناحين ليرتطم بالأرض الصلبة ، فيحدّق ملياً بعدسة المنظار ليطالع في الخلفية فوهة سوداء قاتمة ، هذه الفوهة المريبة هي عالم ينبثق في داخله . عالم ينبض بحس حياة مذعورة ، قلقة ، مضطربة ، تفتقر الى التوازن والثبات . عالم ينأى وحيداً في مساراته المتعثرة مثل شيخ هرم لا يكف عن الثرثرة الفارغة ، فتختلط في ذهنه ابعاد المسافات ، تضيع ملامح الدروب الصحراوية ، تغيم الرؤيا وتتداخل الى حدّ الذهول القناعات بسلامة وجود الاشياء الملموسة . كل ذرّة رمل في هذا السراب السرمدي كائن غريب ومهيل . وجوه حيوانات مختلفة الاجناس والفصائل مركبّة على اجساد بشريّة . اذنابها طويلة ، ترتكز على أرجل مشعرة ، تنتهي الأرجل بمخالب حادّة او بحوافر صلبة . اشكال خرافية عجيبة لا صورة محدّدة لها وتستعصي على الوصف . تتصارع بوحشية . يلتهم بعضها البعض الآخر ، وأحياناً تقول الشعر وتناقش في السياسة وتمارس الجنس . حلقات واسعة ومزحومة بهذه الكائنات العجيبة .

انوفها على شكل خراطيم يرشح منها سائل لزج ، واسنانها أعمدة حديدية مدببة . لها قابلية مذهلة على التزاوج ، حتى وهي تجفّ على مشارف موت محتم لا تكف عن اعتلاء إناثها . تتكاثر بافراط لا يصدق . تتوالد باستمرار . كائنات رعب لا يموت . تضج الصحراء القاحلة بصراخ وزعيق كائناتها الدميمة فيتراجع مذعوراً ، ولكن الكائنات المشوهة تنتبه لوجود دخيل في مملكتها المكتظة بالتناقضات ، مملكة الربع الخالي . فتتحسس على نحو غريزي الخطر المحدث بها . ربما رأت في شكله الآدمي ما تعنيه البشاعة وفق مفاهيمها الجمالية . فمملكة الربع الخالي تخضع لمفاهيم ومقاييس واعتبارات خاصة بها . تكشّر عن انيابها الفولاذية الحادّة وتفتح اشداقها العريضة وتزمجر بهول شرس . يتراجع بتهيب تثب الكائنات المرعبة نحوه قاصدة افتراسه . يتوجس أنيابها ومخالبها تتغرز في جسده المشبخ . يتأهب مرعوباً لاستقبال نهايته المؤلمة والمتوقعة . يفتح عينيه على اتساعهما رعباً ولكنه على نحو مشوش وغير واضح يسمع اصواتاً آدمية مألوفة ، واهنة تؤكد .

ـ ما زال على قيد الحياة .

كانت تتسلق انحناءة السماء الفاقعة وجهاً بريئاً ومشرقاً لفتاة قروية مراهقة ، تلهث في الدم تطلّ على أرض الجور والمآسي والكثافة الغائمة بعين متوهجة ـ تسيل نوراً . فوهة بركان يقذف حمماً مضيئة او يزخ اشعاعاً ، فيلتصق المنظار بعينه ويرنو من خلاله في بؤرة التوهج . يجب ان لا تفوته أدق التفاصيل . يتابع بِوَلَهٍ شديد ذلك الاشراق الهائل . يذوب عشقاً في خلجات تحركها الهادىء . يحاول جاهداً ان يستعمل الكلمات لوصف تداخل الألوان . يرقب العمق منشدهاً ومأخوذاً بهذا الفيض من الضوء الغامر ، ولكن الكلمات تظلّ اعجز عن الوصول ـ ولو من بعيد ـ الى هذا الاقيانوس الزاخر بالمشاعر والإنتشاء والألوان . يخيل اليه انها تسبح في بحر ساكن . تسبح عارية . تسبح في داخله الرحب ، فيبتسم لها بود ويتابع حركاتها المتثاقلة ، الرزينة بما يشبه الغياب . عارية وجميلة ، وصبّية عاشقة تلهث في الدم مشتعلة بضوء ساطع تجرفها الريح غرباً وهي تبتسم . جندي تمزقه شظايا القنابل وهو يبتسم . انسان مضطهد يتفسخ تحت ادوات التعذيب وهو يبتسم . قروي مستلب يرىٰ بيته ينسف بالديناميت وهو يبتسم . كهل يفكر بأن الحياة بمجملها ليست اكثر من غرفة دخل من بابها وها هو يخرج من النافذة وهو يبتسم . . يبتسم . يطفو على سطح مترف وعظيم من ابتسامات الانبياء والمتعبين .

ـ من كان يتصور ان ح ص يموت على هذا النحو البارد ؟

ـ كانت حياته حافلة بالطموحات والآمال والتعب .

يدرك ان الجميع يستخفونه بولعه الشديد في رصد الأفلاك البعيدة وكتابة الشعر الذي لا يقرأه أحد . لكنه لا يهوى الشمس فحسب ، إنما يرصد كينونة حياتية غامضة تنحدر أبداً نحو الأفول والتلاشي . تولد من رحمه الظلام ، لا لشيء منطقي ، إنما فقط لتغرق في الظلام مرّة . كانت جزءاً ، بدونهايخامره احساس بالنقص مع قناعته الكاملة بأنه إنّما يعبث طائشاً وبلا خلفيّة فكريّة تؤهله للتحرش في منطق التاريخ ، إذ انه في افضل انتصاراته التي يسجّلها ضد فشل الآخرين المزمن لا يفعل اكثر من اللهاث البائس ، دون امل ، وراء هوىً مستحيل ، فيتثاءب في ذهنه أسد كهل ، اجرب ومنبوذ ، اعيته الحيلة فتوسد قائمتيه الأماميتين وانكفأ في ظل غابة افريقية مدغلة بانتظار النهاية المرقبة . وحين يعكر صفوه أحد ما لا يفعل سوى ان يلوى بوزه مزمجراً بوهن ثم يستسلم مجدداً لاغفاءة هادئة .

ـ ماذا يقول الطبيب ؟

ـ الأمل ضعيف . .

في صدر الشاسع تتململ جبال الثلج المتكلسة منذ ملايين السنين في القطب المنجمد الشمالي . يحاول ان يضحك ساخراً حين يرفرف بذاكرته طائر البطريق ، يرفرف بمحاولة يائسة للتحليق . ذلك الطير الجميل ، الناعم ، الساذج ، يحاول التحليق في رحابة فضاءات لا نهائية ، ولكنه ـ كثلج القطب المنجمد الشمالي ـ مشدود الى الأرض . مشدود الى الاسفل .

طير كبقية الطيور ولكنه لا يقوى على الطيران . يفترض ان الطيور ينبغي لها ان تطير . . ان تنأى . . ان تجتاز المستحيل وتلغي الفواصل بين المسافات . يحتلّ ذهنه لون الثلج الأبيض . منظر الجبال البيضاء . منظر العالم الأبيض . . .

ـ أما زال يتنفس ؟

ـ اعتقد انه ما زال على قيد الحياة ولكنه في الرمق الأخير .

الشرق يعتم الآن . خيوط قاتمة تنسج غلالة كثيبة وداكنة على جبال الهملايا فتبدو استراليا مجرد رقعة ارضية ضائعة في المحيط الهندي . والشيخ المتعب همنغواي يتدثر بلحيته الشائبة ويختبىء في تجاويف جبال كليمنجارو الشاهقة ، في حين تطلّ الشمس الوليدة على براكين إيسلاند الثائرة ، وعلى امتداد شواطيء المحيط الاطلسي تطفو الاساطيل الحربيّة ، وفي قرى الامازون يحتضر ذئب محاصر . . مضطهد . . مسحوق . . اسمه كونتاكينتي او ح ص او بنجي او زوربا أو السياب، لا فرق . تطلّ الشمس على ناطحات السحاب فينتفض العقيد اوريليانو بوينديا في قبره القميء الذي يشبه خرائب ماكاندو . وفي قرية (جميلة) الباردة يخبو وهج العيون المستريبة . تتقابل الاضداد . اكتشف الانسان الرصاصة كوسيلة متقدمة تقنياً للدفاع عن النفس وقت الضرورة ولكنه انتحر بها في لحظة زمنية مرتبكة . إن لنتفق ولو مبدئياً على أن هذه النتيجة القاسية ما هي في الواقع إلّا مجموع الاسباب التي كوّنتها . يحاول ح ص ان يتذكر الطير الصغير في لحظة احتضاره المتشنجة ، ولكن الظلمة التي هبطت عليه غمرته بكآبة دافئة .

يحاول بلا جدوى ان يفتح عينيه ليرى اين اختبأت قرينته المتوهجة . اي ظلام عصيب هذا الذي يترسب في وجوه الآخرين ؟ يظهر ملفل من قلب الظلمة المطبقة حافياً ، رث الملابس كث اللحية ، متعباً ، وهو يقود موبي ديك في ازقة نينوى الموحلة . موبي ديك الذي كان يهتف بضراعة واستنكار معلناً تبرئة ذمته من الشمس التي أتهم ظلماً بابتلاعها . إذن ، اي قاهر ملعون آخر غيرك حجبها عن وجوهنا المستكينة يا موبي ديك الطيب ؟

ـ اصبح جسده بارداً كالثلج .

يحال ان يركز المنظار على نقطة معلومة في قلب الضوء الاسود ، فيرى بين النوم واليقظة الحلاج يشرب قدحه النقي ، المرير حتى الثمالة الفاجعة ويصرخ ملتاعاً في وجوه كائنات الظلّ . .

ـ انا الشمس .

ـ لقد مات .

يتبعها ـ كطفل يركض وراء ظلّه ـ متعثراً بخيبات هذا الليل الطويل ، تنبض في داخله اشراقة حياة قادمة من قلب المستحيل . يغتسل بضوئها الدافىء ويستريح برهة من اثقاله المزمنة في حضرتها المباركة ، ثم ـ كأي متعب آخر ـ يتوسد صدرها الانثوي الناعم ويغيب عن الوجود . .

العراق ـ نينوى